المسيح بكر القائمين من بين الأموات

البابا يوحنّا بولس الثاني ترجمة : الأب ألبير أبونا

" أشكروا الآب فرحين، لأنه جعلكم أهلاً لأن تشاطروا القديسين ميراثَهم في النور. فهو الذي نجّانا من سلطان الظلمات، ونقلنا إلى ملكوت ابن محبته. فكان لنا فيه الفداء وغفران الخطايا. هو صورة اللهِ الذي لا يُرى وبكرُ كل خليقة... هو قبل كل شيء، وبه قِوامُ كل شَيء " (قولسي 1/12- 15، 17).

إن تأمّلنا اليوم يدور حول هذا النشيد الليتورجي القديم. وربما ان هذا النشيد كان متداولاً في كنائس آسيا الصغرى منذ السنوات الأولى من انتشار المسيحية فيها، فدمجه القديس بولس في الرسالة التي وجّهها إلى الجماعة المسيحية في قولسي التي كانت إذ ذاك مدينة مزدهرة ومزدحمة بالسكان.

إلا أن الرسول لم يذهب قط إلى هذه المدينة الكبيرة في منطقة " فريجية " الواقعة في جنوب تركيا الحالية. وكان أحد تلاميذه قد أسس هذه الكنيسة المحلية، واصل هذا التلميذ من هذا البلد نفسه، واسمه أبفراس. ويظهر هذا الشخص مع لوقا الإنجيلي، في نهاية الرسالة، حيث بولس يسمي لوقا " الطبيب الحبيب " (قول 14/4)، مع شخص آخر هو مرقس " ابن عم برنابا " (10/4)، وقد يكون هو الذي رافق برنابا وبولس في بعض جولاتهما الرسولية (راجع أعمال 25/12، 5/13، 13)، وقد صار بعد ذلك كاتب

الإنجيل الثاني المعروف باسمه.

وهنا نلقي نظرة اجمالية على هذا النشيد الرائع، ونذكّر بالشرح الروحي الذي أعطاه عنه أحد آباء الكنيسة الشهيرين، وهو القديس يوحنا ذهبيّ الفم (القرن الرابع)، وكان خطيبًا ذائع الصيت وأسقفًا للعاصمة البيزنطية، القسطنطينية. وفي هذا النشيد تظهر صورة المسيح العظيمة، رب الكون. فهو، مثل الحكمة الإلهية الخلاّقة التي يُطري العهد القديم أمجادَها (طالع أمثال 8/22-31)، " قبل كل شيء، وبه قِوام كل شيء "، و" فيه خُلِقَ كل شيء، مما في السموات، ومما في الأرض " (قول 16/1).

ففي الكون إذن يتحقق تصميم متسامٍ يكمله الله من خلال عمل ابنه. هذا أيضًا ما تعلنه مقدمة انجيل يوحنا حينما تؤكد : " به كان كل شيء، وبدونه ما كان شيء مما كان " (يو 3/1). فالمادة، مع طاقتها، والحياة والنور، تحمل جميعُها طابع كلمة الله، " ابنه الحبيب " (قول 13/1). ووحيُ العهد الجديد يسلّط ضوءًا جديدًا على كلمات حكيم العهد القديم، الذي كان يعلن : " ان عظمة المخلوقات وجمالها يدفعان بطريق القياس إلى التأمل في الخالق " (طالع الحكمة 5/13).

يقدّم النشيدُ الوارد في الرسالة إلى أهل قولسي مَهَمّة أخرى للمسيح. فهو أيضًا ربُّ تاريخ الخلاص الذي يتجلّى في الكنيسة (18/1)، والذي يكمل " بدم صليبه " (20/1)، مصدر السلام والتناسق للتاريخ البشري كله.

فليس العالم المحيط بنا هو وحده موسومًا بحضور المسيح الفعّال، بل كذلك الحقيقة المميّزة التي هي الخليقة البشرية، أعني التاريخ. فان هذا التاريخ ليس فريسة القوى العمياء والغاشمة، بل هو، بالرغم من الخطيئة والشر، مسنودٌ وموجّه، بعمل المسيح، نحو المِلء. وهكذا، بوساطة صليب المسيح، كل الواقع " مصالَح " مع الآب (20/1).

فنرى ان هذا النشيد يرسم لوحةً مدهشة للكون والتاريخ، إذ يدعونا إلى الثقة.

فنحن لسنا ذرات رمل لا نفع منها وهي مبعثرة في مسافة وزمان لا معنى لهما. بل نحن جزء أساسي من مشروع حكيم منبثق من محبة الآب.

وكما أعلنّا سابقًا، نعطي الآن الكلام للقديس يوحنا ذهبيّ الفم، لكي يتوّج هذا التفكير. فهو في شرحه للرسالة إلى أهل قولسي، يتوقف طويلاً عند هذا النشيد. وفي البداية يشير إلى مجانية عطيّة الله الذي " جعلّنا أهلاً لأن نشاطر القديسين ميراثهم في النور " (12/1). ويتساءل القديس يوحنا ذهبيّ الفم : " لماذا يدعوه ميراثًا (أو نصيبًا) ؟ " ويجيب هو نفسه عن هذا السؤال ويقول : " لكي يُظهر ان لا أحد يسعه ان يحصل على الملكوت بأعماله الخاصة. وهنا أيضًا، كما في معظم الأحوال، للميراث معنى " " النصيب ". فليس لأحد تصرّف يتيح له ان يستحق الملكوت، بل كل شيء هبة من الرب. لذا فهو يقول : حينما تكونون قد قمتم بجميع هذه الأمور قولوا : " نحن عبيد بطّالون، إنما عملنا ما كان علينا فعله " (الباترولوجيا اليونانية، 62، 312).

وهذه المجانية الخيّرة والقديرة تظهر من جديد في موضع أبعد، حينما نقرأ ان كل شيء خُلق في المسيح (راجع قول 16/1). ويشرح ذهبيّ الفم : " به منوطٌ قوام كل شيء. فهو لم يُجزه من العدم إلى الوجود فحسب، بل هو أيضًا ذاك الذي يسند كل الأشياء بحيث انها لو سُحبت من رعاية عنايته، لبادت وانحلّت وتلاشت... إنها تتعلق به، ومجرّد ميلها إليه يكفي لسندها ودعمها " (پ.ي.، 62، 319).

ان ما يحققه المسيح لأجل كنيسته التي هو رأسها هو، بأولى حجّة، علامة محبة مجانية. في هذه النقطة، يشرح ذهبيّ الفم قائلاً : " إن الرسول، بعد ان تكلّمَ عن كرامة المسيح، يتكلم أيضًا عن محبته للبشر، " إنه رأس الجسد، أي رأس الكنيسة "، لكي يظهر شركته الحميمة معنا. فذلك الذي رُفعَ فوق الجميع، قد اتّحدَ بالذين ما يزالون تحت، على هذه الأرض " (پ.ي.، 62، 320).

(عن الرقيب الروماني = الـ " اوسرفاتوري رومانو "
العدد 19، لسنة 2004، ص12)